الباب الرابع

الأوبرا في مصر

* الحاجة لفن الأوبرا
* كلمة الأديب الراحل توفيق الحكيم عن الغناء المسرحي
* الأوبرا في مصر

الحاجة لفن الاوبرا:

ومن الأسئلة التي وجهت إلي سؤال له أهمية كبيرة:

"وما حاجتنا نحن العرب إلى فن الأوبرا، وهو فن مستورد لا جذور له عندنا؟"

وبعد أن تعرفنا على تفاصيل فن الأوبرا أستطيع أن أقول أنه ليس سابقا للأوان أن نطلب لحصيلتنا الثقافية فهرسا من الأعمال الأوبرالية تحمل هويتنا وتمجد ثقافتنا ولغتنا وفنوننا وأساطيرنا المصرية والعربية وبطولاتنا علي مر آلاف السنين. ولقد سبقنا الغرب في هذا الميدان، ولكن الواجب القومي يحتم علينا أن نلحق بركب الحضارة ليس كمقلدين ولكن كمبتكرين، خاصة أن مصر قد أنجبت عددا من المؤلفين الدراسين الذين يستطيعون كتابة الأوبرا بأسلوبنا ووجداننا المصري العربي.

إن حاجتنا للأوبرا هي حاجتنا الملحة للانتقال من البسيط إلى المركب – أي من بساطة الغناء الفردي بمصاحبة التخت، مهما كان موسعا، إلى الغناء المتعدد الأصوات الذي يقدم موضوعات يشترك في أعدادها هذا الحشد الكبير من الفنانين والفنيين لتقديم الرواية والعبرة والعظة مغلفة في أرق وأسمى وأكمل وسائل التعبير.

والموضوعات التي تتناولها الأوبرات الأجنبية لا تخرج عن إطار ضوابط العقل والمنطق والمشاعر الإنسانية الرفيعة، وهي ضوابط تجعل فن

الأوبرا فنا متميزا ومادة ثقافية يمتد دوامها عبر العصور ويسري انتشارها عند جميع الشعوب المتحضرة.

يبقى حاجز اللغة في الأوبرات الأوروبية أو الإيطالية بالذات. وما أقل العرب الذين يتقنون تلك اللغات، إلا أن هذا الحاجز يزول تماما بما ينشر في برامج حفلات الأوبرا من نصوص توضح القصة والمضمون وتعطي كافة المعلومات التي تجعل المشاهد الذي لا يعرف الإيطالية مثلا يشعر ويعيش مع أحداث الرواية ويستمتع بالتعبيرات الغنائية والموسيقية ويشارك أبطال الرواية في أفراحهم وأحزانهم، وقد استحوذت عليه إنسانيته ونسي الفوارق البيئية وبطل مفعول الحاجز اللغوي لأن المشاعر الإنسانية لا تختلف من شعب إلى آخر كالحب والغيرة والخوف الخ...

ومن ناحية أخرى فقد لاحظت أن كلمة أوبرا تفزع المستمع المصري العادي لأنها بالنسبة له، في هذه المرحلة، مجموعة من الأصوات التي تصرخ وتحلق في الطبقات العليا من الصوت البشري وهو ما لم تعتده أذناه، وقد يكون ما لا يعرفه ذلك المستمع أن استعمال هذه الطبقات العليا من الأصوات هو تعبير عن الوجدان الإيطالي أو الغربي بصفة عامة يظهر ليس فقط في ميدان الغناء الأوبرالي بل وفي الأغنيات العادية المتداولة.

ولا شك عندي أن المستمع المصري العادي بل والعربي أيضا سوف يقبل على الأوبرا المصرية لأن ألحانها وموسيقاها سوف تكون مكتوبة في

المقامات العربية المألوفة في الشرق وسوف تعبر بصدق عن وجداننا، ومن ناحية أخرى سوف تتجنب تقليد أي أسلوب أوبرالي معروف.

إن ما نرجوه للأوبرا المصرية أن يكون من يكتبها واعيا بعمق الاختلاف بين الغناء الأوبرالي *والأغنية الفردية للأسباب الآتية:*

يتطلب التعبير عن الانفعالات الدرامية أسلوبا غنائيا غير المألوف في الغناء العربي الذي ينصب معظمه في إطار الغزليات والغراميات والتطريب.

إنه غناء لا تسانده مصاحبة تردد نفس الخطوط اللحنية التي تغنى أي الحوار المغنى بل تصاحبه تركيبات صوتية تفجر المعاني الدفينة في الكلمة وتخلق المناخ النغمي المناسب للموقف.

أنها وسيلة لتعميق وتقوية التعبير لها مسار منفصل عن الغناء ومتصل به في نفس الوقت،

أنها مصاحبة موسيقية متوافقة في العمق ومتناقضة في السطح.

أن الغناء الأوبرالي غناء مرتبط بالأصوات الأخرى التي تتبادل الحوار.

في الغناء الأوبرالي تلحين الكلام لا يكفي لأن دور المصاحبة الموسيقية يصبح كبير الأهمية فهي تعبر عن الأحداث أو تسبقها منذرة أو منبئة، وعلى أية حال فالكلمة غالبا ما تكون عاجزة عن التعبير عن أعماق

معانيها، ولكن الموسيقى تستطيع أن تغوص في تلك الأعماق لأنها فن إثارة الانفعالات الإنسانية.

وفي الغناء الأوبرالي يجب على المغني أن يعتاد على اتباع إشارات قائد الأوركسترا لأنه لا يقوم بدور ضابط الإيقاع أو محدد السرعات وحسب فهو أو لا يستوعب لكل ألحان الأوبرا ويستطيع ترديدها إذا لزم وهو الذي ينسق بين ما يصدر من غناء فوق خشبة المسرح وبين المصاحبة الموسيقية المنفصلة عن الغناء التي تصدر من حفرة الأوركسترا.

بوجه عام فالأوبرا إبداع تشيع فيه الحياة والنشوة المثيرة للخيال، إنها فن تستجيب لسحره وتأثيره الطاغي قوي الانفعال عند الإنسان. والمشاعر الإنسانية واحدة عند كل شعوب العالم ولكن التعبير عنها يختلف وفقا للعصر والمناخ الثقافي والعادات والتقاليد والموروث من القديم. ولا يعقل أن يكون تعبير ابن الشرق عن تلك المشاعر يحاكي تعبير ابن الغرب، هنا رمال وصحاري وحرارة وهناك جبال وثلوج وبرد، فإذا قال فنان الغرب لحبيبته "أنا أحبك" أو شكا لها آلامه فإن تعبيره يتطلب وفقا لمألوف الغناء هناك استعمال طبقات عليا من الصوت على عكس الفنان الشرقي الذي يستخدم التطريب والتكرار حتى ولو كان في هذا التعبير ميوعة، وإذا فرحت امرأة من الشرق انطلقت من فمها الزغاريد أما امرأة الغرب فترقص وتغني بأصوات حادة نعتبرها نحن صراخا وما هي في الواقع إلا تعبير الوجدان الغربي الذي يختلف تماما عن وجدان أهل الشرق.

كلمة الأديب الراحل توفيق الحكيم عن الغناء المسرحي

كتب أديبنا الراحل توفيق الحكيم في جريدة الاهرام "دفتر الجيب (٥٩)" عن الموسيقى والشعر ما يأتي:

نشرت في المقال السابق أن مستقبل موسيقانا الشرقية العربية هو في كلمتين "التعبير والتطريب" لأن "الطرب" عندنا لا يمكن أن نستأصله بسهولة من آذاننا.. ولكن كلمة مستقبل قد يفهم منها أننا لا نعرف ذلك بعد، أو أننا في انتظار المستقبل الذي يأتينا بالنماذج.. والصحيح أننا حاولنا ذلك بالفعل.. ولو كان عندنا الناقد الدارس المتعمق في التحليل وهو موجود ولكنه قليل، لاستطعنا أن نرى في موسيقانا أشياءً نظن أنها غير موجودة.. وسأحاول توضيح ذلك، وإن كنت لست بالناقد المتخصص وسأكتفي هنا بنموذج واحد علي سبيل المثال أراه في أوبريت "العشرة الطيبة" لسيد درويش ففيها ألوان عدة من الألحان: فيها اللحن التعبيري الهزلي فيما أسميه أنا باسم "الكاريكاتوري" وهو الوصف الهزلي الساخر لحكام المماليك.. وفيها اللحن التعبيري التصويري للأخلاق في الملق والوصولية في "علشان ما نعلى ونعلى ونعلى لازم نطاطي نطاطي نطاطي"... ثم يأتي اللحن "التطريبي" "على قد الليل ما يطول" ولأنه طرب في موقف حب فهو يتغنى به مستقلا كأي غنوة مطربة، وهذا ما يحدث أيضا في الأوبرات الأوروبية ونجده في أوبرات فردي وبوتشيني فيما يسمونه "البل كانتو" أي الغنوة الجميلة.

وهو ما لوحظ أن الجماهير تريدها وتنتظرها لتتغنى بها بعد الخروج من العرض المسرحي القائم علي "التعبير" الخالص بالحوار والمواقف.. وأنا نفسي قد وجدت عندي هذه الرغبة بعد مشاهدتي لأوبرا سان صانس "شمشون ودليلة" في باريس ولم أحتفظ حتى اليوم باللحن المطرب فيها وإن كان نوع "التطريب" وطبيعته يختلف عندهم عما عندنا لاختلاف طبيعة الغناء.

إلا أن أذن الإنسان في الحب لا تختلف لأن شعور الحب عند الإنسان واحد.. وها هي ذي كلمات الأغنية التي أحفظها حتى اليوم كما أحفظ لحنها وإن كان الذي ذهب هو صوتي: "قلبي يتفتح بصوتك كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح".. هكذا يتفتح القلب "للطرب" كما يتفتح العقل للتعبير والأذن تعرف الاستماع والعقل يعرف الإعجاب وعلى ذلك يمكن القول "أن الطرب وجداني والتعبير عقلاني".

ومثال آخر نجده عند عبد الوهاب في قطعة نسمعها الآن دائما مستقلة وهي من "مجنون ليلى" فاللحن التعبيري هو ما ينطقه أبو ليلى بقوله: "أجئت تطلب نارا أم تشعل البيت نارا" أما عندما يخاطب قيس بعبارات الحب ليلى فالموسيقى تتجه إلى الطرب.

أكتفي بهذا القدر من مقال الأستاذ الحكيم الخاص بالغناء الأوبرالي.

الأوبرا في مصر:

عندما أمر الخديوي إسماعيل باشا بإقامة دار للأوبرا في القاهرة بمناسبة أعياد افتتاح قنال السويس ضمن ما أنشأ للترفيه عن ضيوفه من ملوك وأمراء مثل حديقة الحيوان وطريق الأهرامات وحديقة الأورمان وبناء على اقتراحات مستشاريه كلف المؤلف الكبير جوزيبي فردي، أشهر المؤلفين في ذلك العصر، بكتابة موسيقى أوبرا عايدة لعرضها في تلك المناسبة، وكان الغناء الأوبرالي هو الأسلوب السائد للتعبير عن الموضوعات التاريخية.

وربما لم يتبادر الي ذهن الخديوي ما لإقامة هذه الدار واستمرار المواسم فيها من أثر على الموسيقى والمسرح وإني اعتقد أن الحركة التي شهدت مصر ازدهارها في المسرح الغنائي في العشرين سنة الأولى من هذا القرن علي يد كبار الملحنين أمثال: كامل الخلعي، وسيد درويش، وداود حسني، وزكريا أحمد، وغيرهم كانت تلك الدار أحد دوافعها.

لم يكن حينذاك من بين المصريين من يستطيع القيام بذلك العمل ولم يكن في الشرق أو حتى في أفريقيا كلها دار للأوبرا بعد، وعندما افتتحت الدار المصرية عام ١٨٦٩ كان فن الأوبرا جديدا علينا يشاهده الأجانب وقلة من المصريين الذين تعلموا في الخارج أو بعض العاملين في ميدان الموسيقى أو الغناء – ويذكر التاريخ أن أحد أصدقاء سيد درويش (الراحل حسن الشجاعي) اصطحبه لمشاهدة أوبرا عايدة ذات ليلة من ليالي

المواسم الإيطالية السنوية التي لم تتوقف منذ افتتاح الدار حتى احتراقها؛ فبهره هذا الفن الرفيع لدرجة أنه قرر أن يسافر إلى إيطاليا ليدرس (وقد كان أميا) حتى يستطيع كتابة الأوبرا المصرية الصميمة، ولكن المنية عاجلته بعد تلك الليلة بقليل.

وجدير بالذكر أن أوبرا عايدة التي تدور أحداثها في مصر هي في الواقع أوبرا إيطالية اللغة والوجدان تدور أحداثها أبان الاحتلال الروماني لمصر فأبطالها راداميس وأمنيريس وغيرهم ليسوا مصريين كما أن القصة نفسها لا أساس تاريخي لها كما يؤكد ذلك علماء المصريات وإنما هي من خيال أوجيست ماريت الفرنسي الذي كان يعمل مديرا للآثار في عهد إسماعيل باشا.

ولو كان الذي اختار القصة مصريا لوجد عشرات الموضوعات أبطالها من المصريين مثل أحمس أو رمسيس الثاني أو غيرهم.